

الشيخ رابع مدور 1908م / 1994م

بقلم: خنير زويبي

أستاذ التاريخ - سابقاً -

مديرية التربية الوطنية - ولاية سطيف -

طري العود، وكان ذلك بمسجد القرية، المعروف باسم : مسجد سيدي ساعد خطاب. ثم انتقل الفتى إلى زاوية : حامدي الشريف، المعروفة بزاوية (لحوامد) بقلال. جنوب سطيف. فتلقى علوم اللغة، وعلوم الفقه ونظم الشيخ خليل للمذهب المالكي، على يد أساتذة أجلاء، من أمثال الشيخ رابع قرماش، والشيخ محمد القماري، وغيرهم ممن تخرجوا من جامعات المشرق العربي، كجامع الأزهر بمصر وجامعة المدينة المنورة بالملكة العربية السعودية.

وبعد أن تحصل الشيخ رابع على كَمِّ هائل من المعارف اللغوية والدينية، بزوايا المنطقة المحاذية لمدينة سطيف؛ أحس في نفسه رغبة جامحة في محاولة الاستزادة من ينابيع العلم خارج هذه الزوايا، فراح يبحث له عن ينابيع أغزر من هذه الينابيع المحلية وكيف لا وهو

أولاً : مولده ونشأته وتعلمه:

في بيت من بيوتات القرية الصغيرة، ووسط سهول ملول الخصبة الواسعة، جنوب مدينة سطيف العريقة؛ وذات ربيع من سنة 1908م وتحديدًا في شهر مارس، تُبرعم الشجرة المدُّورية الأصيلة المباركة، ليطلع من بين أفانينها برعمٌ متميز أيما تمييز برعمٌ فيه من اليناعة والخضرة والخصب الشيء الكثير، فكان هذا البرعم الصغير هو ذاك الشيخ الكبير، كبر المكانة والدرجة لا كبر السن والجسامة. ومن يكون هذا إلا ذلك الشيخ الوقور الشيخ رابع مدور بن لخضر بن رابع بن علي بن الدراحي بن حميدة.

لقد حمل هذا البرعم اليافع لقب الشيخ كما الكبار، وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وذلك حينما أنعم الله عليه، وأكرمه بحفظ كتاب الله عز وجل، وهو غض الشفتين،

وبذلك تحصّل على شهادة التطويع التي كانت تمنحها نظارة الجامعة آنذاك. وكان ذلك سنة 1935م. ويقول الشيخ رابح مدور بن لخضر السطايفي، وهو يسترجع ماضيه في محاورة مع (العقيدة): «ومما أذكره من الدراسة في جامع الزيتونة علم النحو الذي كنا ندرسه على أربع مراحل، وننتقل من كتاب إلى كتاب. نبدأ بالأجرومية ثم قطر الندى، ثم ألفية ابن مالك، ثم شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، بالإضافة إلى دروس أخرى في البلاغة والبيان والمنطق والرياضيات وغيرها».

وكان قد تلقى هذا الزخم الهائل من العلوم على يد شيوخ أكفاء نذكر منهم: زغوان موسى، وإبراهيم النيفر، والطاهر ابن عاشور ونجله الأستاذ فاضل بن عاشور ومعاوية التميمي، وعبد السلام التونسي ومحمد الطوسي، ومفتاح الطرابلسي، ومحمد المنستيري ومحمد بن الأمين، ومحمد الحطاب وأحمد بن عثمان، وغيرهم كثير من أساتذة الزيتونة الأجلاء.

التّوّاق دوما للاستزادة من العلم والمعرفة، أينما تواجد، وكيفما كانا. ففكر في السفر خارج الديار، أو قل خارج الجزائر، وتحقّق له ذلك. فسافر إلى تونس والتحق بجامع الزيتونة سنة 1928م ليلتحق بالكثير من الشباب الجزائري المتواجد هناك وللغرض نفسه. فاجتاز امتحان القبول والتصنيف، فحظي بالموافقة عن جدارة واستحقاق. فانتسب إلى الجامعة، ودخل السنة الأولى، وقرّر أن يلاحق الزمن الفائق، ويستأنس بذوي العلم والمعرفة، فوجد ضالّته هناك؛ وراح الشيخ يجتري من الزمن ما يُحسب له، ولم يترك للزمن مندوحة ليُحسب عليه. وتتوالى السنون والشيخ رابح مدور يتدرج بامتياز من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى، إلى أن وقى سبع سنين عددا. ولم يكتف الشيخ بدراسة المقرر الجامعي الذي يشتمل على النحو والبلاغة والصرف وعلم القراءات، والجغرافيا والحساب والتاريخ، بل راح يبحث له عن علوم أخرى ضمن كُتب من هنا وهناك، فتحصّل على نصيب أوفر من العلم والمعرفة وتوجت كلّ هذه الدراسات بالنجاح، وذلك بعد اجتيازه للامتحانات النهائية للدراسة بالجامعة الزيتونية.

وفي السنة نفسها أي 1935م يحمل الشيخ حقائبه قافلا إلى ربوع الوطن الغالي، وفي جعبته رصيد معتبر من المعارف اللغوية والدينية، إذ لم يبق له إلا أن ينفع بهذا الرصيد العلمي والمعرفي الهائل. أبناء وطنه الذين كانوا في أمس الحاجة إلى هذا العلم وهذه المعرفة. فيضيف لبنة جديدة لذلك الصرح الكبير الذي شرعت في بنائه جمعية العلماء المسلمين بإيعاز من الشيخ العلامة ابن باديس وأقرانه، من أمثال الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، والفضيل الورثيلاني، ومبارك الملي وغيرهم ممن نذروا أنفسهم لخدمة العلم والدين عبر أرجاء الجزائر الحبيبة.

ثانيا : شخصيته المتميزة :

إذا أنت أيها المستمع الكريم، كنت قد صادفت ذات مرة رجلا تبدو عليه علامات النباهة والفتنة والذكاء، يُشعُّ من وجهه نور الإيمان المتدفق، وتلمح في عينيه براءة المسلم الكيس الفطن وتُحسُّ بنوع من الهالة والوقار، تكتنفان شخصيته، قد أتاه الله علما كثيرا فأخلص النصح لمن هم حوله، كما أخلص لدينه

وعقيدته. أحبَّ وطنه حتى النخاع، وقَدَّم ما استطاع أن يُقدِّم وفي حدود ما يسمح به الظرف، وما تقتضيه الأحوال. فذاك الشخص هو رابح مدور صاحب أطول مدة في الإمامة، وصاحب أطول مدة في الدعوة والفتوى. أحبه الناس وأحبهم، حتى صار فردا منهم، لا يُعدم الحضور في أفراحهم أو أقراحهم. فهو الأب المحترم المبجل، وهو الناصح الأمين، للصغير ولل كبير معا، هما سيان عنده، فمن كان صغيرا سيصير لا محالة كبيرا وهكذا.

كان متوسط القامة، يرتدي الملابس الجزائرية التقليدية الأصيلة، والمتمثلة في العمامة البيضاء النظيفة، والعباءة الجزائرية الجميلة، والصدريّة ذات الصنع المحليّ، والسروال ذي الأعطاف المتساوية، والبرنس الصوفي الرفيع، والحذاء المستي المتناسق مع الجوارب الرقيقة. إذا مشى لم يُسرع ولم يُبطئ الخطى. إذا حدّثك فإنّك تُحس في حديثه بنوع من الاسترسال المنظّم والمدرّوس، فيه نوع من الاتزان، بل وفيه نوع من الإقناع الهادئ. فالحجة حاضرة لديه، والأدلة موجودة طي كلّ حديث أو مسألة.

العشرية الحمراء. فما استطاع أحد أن يتجرأ على فرض شيء داخل المسجد في حضور الشيخ رابح مدور، والكل يشهد له بذلك.

ثالثا : سيرته العلمية والنضالية:

لقد كان الشيخ رابح مدور يرى بأن الانضمام إلى جمعية العلماء المسلمين، هو السبيل الأوضح للخروج من أزمة الجهل والتخلف. فرحل الشيخ على عجل إلى الجزائر، وكأني به يسابق الزمن، ولا أدل على ذلك من أنه ترك دفتره المدرسي، بالجامعة الزيتونية، هذه الوثيقة الهامة، التي يتعلق مصيره الوظيفي بها.

ونظرا للأهمية البالغة لهذه الوثيقة المدرسية، فقد قام صديق للشيخ رابح مدور يُدعى (حمود) بمهمة إرسالها إليه، وكتب له رسالة على صفحة الدفتر من الداخل يشرح له فيها كيف تحصل على هذا الدفتر المدرسي وطريقة إرساله إلى الشيخ رابح مدور. ناصحا إياه بالتداوي قبل استفحال المرض، كما ذكره بالأيام السعيدة الخوالي التي قضياها معا في جو الدراسة والتنافس، وشهد له بالنجابة وحدة الذكاء.

كان لا يتسرع في إلقاء الأحكام جزافا في أية مسألة كانت، دينية أو اجتماعية أو سياسية، أو ما إلى ذلك. كان قليل الفتوى فهو لا يُفتي حتى يُحيل سائله على شيوخ المدينة، ليس تهربا ولكن لتقديره لهم وإيثارا على نفسه أيضا. كان يُفتي فيما هو عام على الملأ، وأما فيما هو خاص فكان يطلب من سائليه المجيء إلى بيته، أو في مكان خاص، حفاظا على سرية الفتوى الخاصة. لكن هذه الطيبة، وهذا التسامح، وهذا التواضع، لا يعني أبدا أنه كان يقبل كل شيء، لقد كان . وبحسب أقرب أصدقائه المجاهد: ساعد زهراوي. صارما ويرد بعنف عندما يُسأل في أمور تافهة، وإن شئت قل في الأمور البديهية جدا، والتي يعرفها أبسط الناس. فاللوم ساعتهما والعتاب، يكونان بديلا عن الفتوى وكيف لا وهو من هو؟ إنه الشيخ رابح مدور. فهو لا يخشى لومة لائم، وبخاصة إذا كانت المسألة نصية، فهو يوظف مقولة (لا اجتهاد بعد النص).

هذه الشخصية التي اكتسبت هالة من الوقار والهيبة، حتى أن مسجد أبي ذر الغفاري لم يتأثر بالزلزلة الكبرى إبان

جهاذة الجزائر؛ إن لم نقل أمام جهاذة العرب ولا فخر. ومما جاء في هذه الخطبة: «... وهاهي أمكم الجزائرتحن إليكم حنين الثكلي مما أصابها من ألم الجهالة، حتى أصبحت لا تُراعى إلا بعين الاحتقار، ولا يُقام لها وزن من بين الأقطار الإسلامية فانصرمها أيتها الأمة ينصرُك الله، وهاهي لغتنا العربية قد أصبحت منّا بجانب، لا نشم لها رائحة، ولا نعرف لها فضلا، كأن لم تكن هي لغة نبينا صلى الله عليه وسلم التي أنزل القرآن على مقتضى أساليبها (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين).. فهي بنا أيتها الأمة الجزائرية لنحي لغتنا، حتى ترتفع عن الجزائر تلك السحبُ الحالكة فتصبح مفتخرة بلغتها، بارزة من بين إخوانها.

وتمضي سنتان على رجوع الشيخ رابح مدور إلى أرض الوطن حيث قضاها في التدريس بالمسجد الذي تعلم فيه القرآن الكريم بقرية ملّول، عرفانا بالجميل، ثم ينتقل الشيخ رابح مدور إلى رأس الوادي مسقط رأس الشيخ البشير الإبراهيمي (بولاية البرج) وتحديدًا إلى زاوية

وفي العام نفسه، ينضم الشيخ رابح مدور بن لخضر إلى شعبة جمعية العلماء المسلمين (بصفة عضو كامل العضوية) لسنة 1937م وكان قبلها قد شارك في المؤتمر الذي انعقد بنادي الترقى بالعاصمة، في شهر سبتمبر من سنة 1935م تحت رئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس وبحضور جميع أعضاء الجمعية من أمثال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والعربي التبسي ومبارك الملي، ومحمد خير الدين، وابن اليقظان، والفضيل الورتيلاني، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد العيد آل خليفة، والقائمة طويلة. وأمام هذا الحشد من العلماء الأجلاء، يتفضل الشيخ رابح مدور بإلقاء خطبة رائعة، يدور موضوعها حول الحث على تعلّم اللغة العربية، والاهتمام بها. فكانت هذه الخطبة آية في الفصاحة العربية مما ينبئ بأن شيخنا كان متمرسًا في الأخذ بناصية اللغة العربية مبني ومعنى، وأنه واحد ممن استطاعوا أن يلوا عنقها؛ فطوّعها بعد أن غاص في أعماقها، وبعد أن سبر أغوارها. ونتساءل نحن أمام من ألقى خطبته هاته؟ والجواب أنه ألقاها أمام

الله. وهذا الأخير الذي كان يُلقب في مدينة سطيف بسبويه سطيف. والشيخ مبارك سائته وأبيه، والشهيد بليلطة محمد والشلالي وغيرهم كثير، وكلهم تزود من خير الزاد على يد الشيخ رابح مدور وعلى يد مجموعة أخرى من الأساتذة المدرسين بالمسجد الجامع ضمن حلقات الدرس المنتظمة هناك. ومن هؤلاء الأساتذة المدرسين إلى جانب الشيخ رابح مدور الشيخ البشير الريغي، المعروف ب: (ابن يحيى) والملقب ب: البشيرالسي حمدي، ومحمد الصغير خاسف الفقيه الجليل والصادق حماني، والشيخ محمد عادل، والشيخ محمد وعلي الزواوي، والشيخ حسونة، وغيرهم كثير. من الذين ذكرهم الأستاذ عبد الحفيظ أمقران ضمن مدونته التي أفادنا بها خطياً بحضرة مدير الثقافة لولاية سطيف الأستاذ الأديب محمد زيتلي. على هامش الملتقى الوطني الذي انعقد في الفترة الممتدة من 16 إلى 18 أفريل 2007م بدرا الثقافة بمدينة سطيف.

كما كان الشيخ رابح مدور يجتمع في هذا المسجد وعلى الدوام مع الشيخ

بلعيساوي أين درّس بها سنتين كاملتين أيضاً، فأفاد طلاب الزاوية بعلم غزير، محاولاً تعويضهم ما فات، ومُعِدّاً إياهم لما هوأت. ثم يغادرها إلى عاصمة الهضاب مدينة سطيف ليلقي بها عصا الترحال. حيث عُرض عليه القضاء فرفض. كما قام بمنع والده من الترشح إلى أي منصب حكومي آنذاك. ثم شارك الشيخ رابح في المسابقة التي نظّمها الجمعية الدينية لمسجد المحطة بسطيف (أبي ذر الغفاري) حالياً. فحظي الشيخ بالرتبة الأولى عن جدارة واستحقاق، وعيّن إماماً لهذا المسجد سنة 1939م. فكان الإمام الخطيب، والمدرّس القدير، والمفتي الصائب. فذاع صيته، وتميّ الشباب المتعطش للعلم والمعرفة التّقرّب منه، متمنين أن ينالوا قسطاً من علمه الغزير. لا يُثنّهم عن ذلك عناء سفر، أو شظف عيش.

وأذكر في هذا المقام بالذات بعضاً من جموع التلاميذ الذين تلقوا العلم والمعرفة على يد هذا الشيخ : الأستاذ المجاهد عبد الحفيظ أمقران أطل الله في عمره، والأستاذ المجاهد لقريشي مداني رحمه

الشيخ لمدة 55 سنة، وعلى سبيل المثال،
فقد زار المسجد المطرب المصري الملتزم :
عبد المطلب وأذن فيه

ثم صلى وراء الشيخ رابح مدور. وفي
الثمانينات من القرن الفائت، زار المسجد
الكثير من الأساتذة العرب والمسلمين من
مشارك الأرض ومغارها الكثير الكثير.
فدرّسوا بالمسجد وقرأوا القرآن ترتيلا
وتجويدا، وصلّوا كلهم وراء الشيخ رابح
مدور. بهذا المسجد التاريخي العظيم.

وتتوالى السنون، وتتفاعل الأفكار
الدينية والسياسية، ويأتي ربيع 1945م
هذا الربيع الذي أبى إلا أن يتخضب
بدماء الجزائريين؛ فوقع الذي وقع، وتشاء
الأقدار أن تكون انطلاقة تلك الانتفاضة
الميمونة، انتفاضة الثامن ماي 1945م
التي وضعت حدا فاصلا لكل الأكاذيب
والوعود الاستعمارية الزائفة، مختصرة
بذلك أفعال التسويف التي طالما لاكتها
ألسنة المعتدين فأمن الكل بأن لا خلاص
من ربة المستعمر، إلا بالرشاش على
حد قول الشاعر مفدي زكريا: لم يكن
يُصغى لنا لما نطقنا فاتخذنا رنة البارود
وزنا وعزفنا نغمة الرشاش لحنا

البشير الإبراهيمي، المدرّس هو الآخر
في هذا المسجد المحسوب على جمعية
العلماء المسلمين، فيتبادلان أطراف
الحديث في القضايا الدينية والوطنية.
أوبالأحرى قضايا المجتمع برمته. كما كان
يتردد على هذا المسجد أعضاء وجمعية
العلماء المسلمين وبخاصة منهم الشيخ
العربي التبسي. وأذكر هنا أنه حدث
ذات مرة وأن طلب الشيخ رابح مدور من
الشيخ البشير الإبراهيمي أن يتقدم عليهم
في الصلاة. وهذا من باب الحياء. فأبى
وطلب من الشيخ رابح أن يصلي بهم، لكن
الشيخ رابح مدور طلب أيضا من الشيخ
العربي التبسي أن يأثمهم، فرفض هو
الآخر وقال له : «صل بنا وصل صلاتك»
مجلة العقيدة 24 فيفري 1993م ص 7
وهذا من باب الدُّعابة وفي هذا دليل على
صفاء النفوس وعلى الاحترام المتبادل
بينهم.

ولا ندري هل من قبيل الصدف، أو
أن سمعة الشيخ رابح هي التي جعلت
تهافت زوار الجزائر، بل زوار سطيف، من
الشخصيات الهامة، يأبى إلا أن يزور هذا
المسجد الجميل، الذي أمّ الناس فيه هذا

قلت : وانطلقت الانتفاضة، انتفاضة الثامن ماي 45م، من هذا المسجد الذي كان يؤمه هذا الشيخ، ولا أحسبني مخطئاً إذا قلت بأن للشيخ يدًا ولو من بعيد، وذلك عن طريق التوعية من خلال الخطب والدروس التي كثيرا ما كانت تحتوي على مقاربات في غير ما تصرّح، أو تحتوي على رمزيات فيها كثير من التلميح. فكان لهذه وكان لتلك، الأثر البالغ في النفوس. وها هو الشيخ ذاته يصرح بأنه تعلم ذلك من الإمام العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يأتي إلى هذا المسجد بالذات ليلقي دروسا حيث يقول: (... كثيرا ما استمعت إلى دروس الشيخ ابن باديس هنا بالمسجد، وكثيرا ما كان يتردد عليه، يُلقي دروسا في الدين والسياسة والأخلاق والاجتماع وكان يتكلم أحيانا بالإشارات التي لا يفهمها إلا الأذكياء من الناس، لأن فرنسا كانت تراقب كل خطواته وتحركاته، وكان كل من يستمع إلى ابن باديس يحبه ويجلّه لشدة علمه وتقواه).

وما دام الشيخ رابع مدور قد توصّل بحدسه، إلى مثل هذه الدلالات ذات

الإيحائية، فهو من دون شك يكشف لنا عن رجل متميز جدا، له من الخصوصيات ما جعله يحظى بتلك المقدرة على إدارة هذا المسجد المبارك . مسجد أبي ذر الغفاري . ولمدة تنيف عن نصف قرن من الزمن، وأي زمن؟ إنّه زمن التحدي الأكبر للإدارة الاستعمارية التي لا تُفوّت فرصة، فهي المتفطّنة في كل مكان وفي كل زمان. ولعلّ شيئا لم يكن ليخطر ببالها وهي تمارس لعبة النور والظلام، ومع مَنْ؟ مع رجل اتّقد فطنة وذكاء، أسوة بقول النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال: " المؤمن كيّس فطن ". وكانت المسيرة، وحدث التغيير، تغيير نحو الأجدى والأنفع. وسجّل التاريخ صفحات خالدة، لا يزال الشيب والشباب، يحييها في يوم 8 ماي من كل سنة.

وتنقضي أعوام من بعد أعوام، إثر المجزرة الرهيبة، والناس يترقبون بنوع من الحذر الشديد. وتظهر المنظمة السرية. وينكشف أمرها. وتتوقف مسيرتها. وتبلغ الأزمة أقصاها، ويستمر المتمرسون في العلم عاكفين على شحن النفوس، وشحن الهمم مؤمنين بأن

الشيخين محمد الصغير خاسف والشيخ خبابة. وترسل بهم جميعاً إلى معتقل قصر الطير (قصر الأبطال حالياً) وما أدراك ما معتقل قصر الطير، فاسألوا الذين رُجّ بهم هناك فعندهم الخبر اليقين.

ويقضي الشيخ مدّور بهذا المعتقل شهرين كاملين. ثم يُفرج عنه نظراً لتدهور صحته، ويأبى الشيخ رابع مدّور أن يركن إلى الراحة فيعود إلى منصبه، بل ويعود لأداء رسالته الدعوية التنويرية الجهادية. يدرّس ويخطب ويفتي، حتى صار المرجعية الأولى والأخيرة للفتوى من بعد وفاة الشيخين المذكورين آنفاً. هذان الشيخان اللذان كان يؤثّرهما على نفسه في ميادين الفتوى وذلك من باب التواضع. حتى أنّ البعض من حجيج منطقة سطيف حينما سألوا أبا بكر جابر الجزائري بالبقاع المقدسة عن بعض القضايا الدينية، سألهم من أين أنتم؟ فلمّا علم بأنهم من سطيف، أجابهم بقوله: لديكم الشيخ رابع مدّور وتسالون غيره! وفي هذا اعتراف صريح على أن للرجل مكانةً علميةً معترفاً بها حتى خارج الجزائر. وللعلم فالرجلان يعرفان بعضهما جيداً.

الأزمة تلد الهمة. ويكون لشيخنا رابع مدور النصيب الأوفر، نظراً لفطنته وذكائه، فهو لا يترك لخصومه دليلاً واحداً يمكنهم من إدانته. وتتبلور الأفكار المؤمنة بالثورة المسلحة. وتأتي ساعة الخلاص، ويؤذن مؤذن الجهاد: أن حي على الجهاد. وتنطلق الرصاصة الأولى في وجه عدوّ طالما لوى رقاب العباد واستنزف خيرات البلاد. وتندلع الثورة المباركة ثورة نوفمبر 1954 م فتتسع دائرتها، ويستعر لهيما، ويجد الشيخ رابع مدور ضالته فيها، بعد أن شعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاهها، فما وجد من سبيل إلاّ شحّ النفوس بما يجب أن تُشحن به، شأنه في ذلك شأن كلّ العلماء الذين لا يملكون إلاّ الكلمة النافذة، مؤمنين بأن الجهاد بالكلمة، لا يقل أهمية عن الجهاد بالبندقية، فكثف الشيخ من دروسه على الرغم من المراقبة الشديدة آنذاك على المساجد من قبل المستعمر الغاشم. الذي شدد الخناق على كلّ ما من شأنه أن يكون مدعاة لتأليب الناس ضده. وتجيئ سنة 1957 م وتتفطّن السلطات الاستعمارية للشيخ مدّور ولأمثاله من الدعاة، فتلقي عليه القبض رفقة

بعض الأئمة عن مهامهم المنوطة بهم لسبب أو لآخر، استمر المسجد في أداء رسالته دون أن يتأثر بتلك الهزات الفكرية العنيفة في التسعينات من القرن الفائت. ويقضي شيخنا 55 سنة في مجال الدعوة الإسلامية بهذا المسجد. مبدئياً آراءه في مسائل عديدة تهم المجتمعات الإسلامية على وجه العموم، وتهم الشعب الجزائري بصفة خاصة، دونما تهيب أو تردد. ودونما مداهنة أو مجاملة. تحذوه في ذلك عزيمة فولاذية. وإيمان لا يتزعزع.

وللشيخ رابع مدور رؤية متزنة وواعية، في كثير من القضايا الدينية والاجتماعية والأخلاقية، وذلك وفق الشريعة الإسلامية السمحة، ووفق ما تقتضيه الظروف، وهذا من باب الاجتهاد. وكيف لا وهو رئيس المجلس العلمي والفتوى بسطيف، أضف إلى ذلك تكليفه من طرف مديرية الشؤون الدينية بتكوين الأئمة.

وفاته وأثاره :

من البديهي أن يتساءل القارئ : ماذا قدم الشيخ رابع مدور غير الآراء

ولا أدل على ذلك، من أن الناس في سطيف وضواحيها صاروا يصومون ويفطرون على فتوى الشيخ رابع مدور الذي لُقّب بمفتي الديار السطائفية كما أسلفت. ويُطوى الزمن، وتنقضي سنوات الحرب الضروس. وتشرق شمس الحرية في صائفة 1962م ويستعيد الشعب الجزائري استقلاله وكرامته، ويتهافت المتهافتون على احتلال مناصب العمل، وهو أمر طبيعي جداً ويتمسك الشيخ رابع مدور بوظيفته التي ما قبل عنها بديلاً، حتى وإن كان البديل أستاذاً بوزارة التربية الوطنية. كما عُرض عليه القضاء فرفض ؛ لأن الشيخ يعتبر نفسه مجاهداً يبلغ الدعوة على أحسن وجه، وبأسهل وأيسر طريق، هذا الطريق المتمثل في التقيد بالمذهب المالكي الذي هو مذهب الأغلبية الساحقة في الجزائر، بل الأغلبية الساحقة في المغرب العربي قاطبة. وتشهد الجزائر تطورات، وتتأثر بالتيارات الفكرية كغيرها من دول العالم الإسلامي، وحدث الذي حدث ويقف الشيخ بصرامة في وجه كل محاولات التغيير السلبي، بل التغيير نحو الأردأ والأجهل، ويصمد ويقاوم. فحين تخلى

التي دُوّنت، والتي كانت بمثابة الكاشف الحقيقي عن آراء الرجل وتوجهاته الفكرية، في كثير من القضايا المتعددة الدينية منها والاجتماعية والسياسية، وغيرها من القضايا ذات التوجهات العالمية؟

والجواب هو: أن الشيخ له من الرصيد الأدبي، الشيء الكثير وأن فن الخطابة على وجه التحديد له فيه اليد الطولى. فللشيخ مئات الخطب، المخطوطة بيديه، والتي تمحورت حول كثير من القضايا التي واكبت مسيرة الرجل، من جهة، وواكبت مسيرة الجزائر منذ الأربعينات، وإلى التسعينات، أي: ما يزيد عن نصف قرن من الزمن. أضف إلى ذلك الدروس التي قدّمها لتلامذته الدارسين، زيادة على الدروس العامة التي كان يقدمها للدهماء من الناس. فقد كان الشيخ يُدرّس المنطق، وعلم النحو، والبلاغة والفقه والتفسير، وعلم التركية أوالمواريث.

ولاشك بأنّ مجموع الخطب بهذا الكم الهائل، وعلى امتداد هذه الفترة الزمنية، كفيل بالدراسة، ليس من

منظور، واحد، بل من منظورات شتى. والمتصفح لهذه الثروة الأدبية، يكتشف حتما تلك النمطية التي صاغ بها الشيخ الجليل خطبه، بنوع من التراتبية وبنوع من النسقية اللافتة. فالملاحظ على هذه الخطب أنها تنقسم إلى قسمين: خطب مطولة، فيها إسهاب، وإطناب وتفصيل. وخطب مقتضبة، لا يكاد المرء يستطعم حلاوتها حتى تعلن عن نهايتها.

وظل الشيخ كذلك إلى أن وافته المنية في 1994م.

فمعذرة إن أنا قصّرت في حقّ هذا الرجل العالم. والله نسأل الرشاد والتوفيق في أعمالنا جميعا.